تفسير سورة الزلزلة

حسين صالح العايش
البراك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾
وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

أول تغيير للكون

تقدم في سورة الانفطار كلام عن التغيير الكوني، وقلنا إنّ قوله تعالى: ((إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ))(الإنفطار:١) يشير إلى أول تغيير للكون، وأنّ الانفطار -هو الانشقاق كما جاء في سورة الانشقاق ((إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ))(الإنشقاق:١) - ومظاهر التغيير الكوني التي لا تقتصر على السماء فحسب، بل هناك مظاهر أخرى تكون في الأرض، وسورة الزلزلة تشير إلى هذه المظاهر من التغييرات الكونية في الأرض.

الاضطرابات في القشرة الأرضية

قوله تعالى: ((إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا))(الزلزلة:١).

مظهر من مظاهر التغيير الكوني الزلزال، وهو الارتجاج والاضطراب، وهو معروف لدى الإنسان بكونه في حيز محدود في بقعة من الأرض، مع استقرار بقية الأماكن في الكرة الأرضية على حالها.

فهناك زلازل متعددة تمرّ على الإنسان، والزلزال معناه الرجّ والاضطراب، وقد ورد في القرآن بهذا المعنى، قال تعالى: ((إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا))(الواقعة:٤) أي ((إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا))(الزلزلة:١)، لكن الزّلزلة إنما تكون معروفة كما أسلفنا في إطارها المحدود، وليس في إطارها الواسع والكبير، أمّا الزّلزلة التي تحدث ويُؤذن للعالم بعدها بالزوال، فتشمل رقعة الأرض بأكملها، أي أنّ الكرة الأرضية بأجمعها تضطرب، ويتحقق بعدها الانتقال إلى عالم الآخرة.

تبدأ الأرض بالارتجاج والاضطراب فلا يستطيع الإنسان أن يعيش عليها، إذْ أنّ العيش عليها يتوقف على ثباتها واستقرارها، رغم كونها في حالة حركة

كما هو واضح، وحركتها دائبة ومستمرة لكنّ الإنسان لا يشعر بذلك، أمّا الزّلزلة فهي حركة بقوة ارتجاج واضطراب يشعر به الإنسان فلا يستطيع أن يعيش معه.

دلالات التغيرات الكونية

إذن هناك مظاهر سماوية وأخرى أرضية تدلل على الأفول والتغير والانتقال من دار إلى دار، ومنها الاضطراب والارتجاج الذي لا يختص بمكان واحد، بل يشمل جميع الأماكن بأجمعها.

إنّ من شاهد الزلزال يدرك ما يترتب عليه من آثار، ومنها: الخوف والاضطراب ومحاولة الفرار للنجاة بالنّفس.

الاضطرابات في حياة الانسان

يعيش الإنسان الاضطراب كما تضطرب الأرض وترتج، فيضطرب هو ويرتج إلاّ من شاء الله، أي أنّ بعض الناس عنده ثبات واستقرار وإيمان وسكينة، خصوصًا إذا كان من أولياء الله سبحانه، قال تعالى: ((أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ❖ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ))(يونس:٦٢ -٦٣)، لكنّ الأعم الأغلب من الناس إذا حدث هذا المظهر الكوني البسيط يضطرب، إلاّ من وصل إلى مرتبة الاطمئنان النفسي، فإنه لا يتأثر بما يضطرب منه الناس، أمّا الأعم الأغلب والأكثرية الساحقة فإنهم يضطربون ويخافون ويصبحون على وجل، ولا يستقرون إلاّ إذا رجعت الأرض على حالتها الأولى من الاستقرار، بناءً على ذلك يستطيع الإنسان أن يقيس مدى إيمانه وارتباطه بالله تعالى في حالة المصائب، فإنّ المصائب من أعظم النعم على الإنسان، ولولاها لصعب على

الإنسان السير في النهج الإيماني بل لعل بعض الناس لا يرتبط بالله تعالى، وبالتالي فلن يتكامل في شخصيته، بل سيخلد إلى الأرض ويتبع هواه، لكنّه عندما يرى صديقه قد مات، والآخر ابتلي بمرض عضال، سوف يدرك أنّ الحياة هي محل ابتلاء، وبالتالي سينتقل منها إلى غيرها، ولهذا فإنّ مصائب الدنيا لها أعظم الأثر في كمال الإنسان وقربه ووصوله إلى الله تعالى، وقولنا إنّ على الإنسان أن يقيس إيمانه لأنّ ذلك له تأثير جميل على ارتباطه بالله سبحانه إذْ أنّ كثيرًا من الناس إذا لم تحدث هذه المظاهر لهم سيبقون في حالة ركود، لانشدادهم إلى الأرض وإحساسهم العميق بأنهم سيعيشون إلى الأبد وإلى ما لا نهاية له في هذه الأرض، غير أنّ بعض الناس يستفيد من المصائب ويغير سلوكه تغييرًا جذريًّا، وبعضهم الآخر إذا زالت عنه المصائب رجع إلى حالته الأولى وهم الأكثرية من الناس، غير أنّ ذلك في الابتلاءات المحدودة، أمّا الابتلاءات الشاملة والعامة بكل الكرة الأرضية والتي لا يبقى مكان ولا قطعة من الأرض إلاّ ويعمها الابتلاء كالزلزلة العامة، فإنّ خطبها الشديد يجعل الجميع يتغير.

أثقال الأرض:

قال الله تعالى: ((وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ❖ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا))(الزلزلة٢ -٣).

هناك أمور متعددة تترتب على الحركة الشديدة الشاملة لكل الأرض أولها إخراج الأرض لأثقالها، وقد فُسّر ذلك بمعانٍ متعددة:

الأول أجساد الموتى

أي أنّ الأثقال هي أجساد الموتى التي تُبعث من الأرض وتخرج إلى الله تعالى بعد النفخ في الصور، فإنّ النفخة الأولى يميت الحق تعالى فيها جميع الأحياء، والثانية يحيي بها الموتى، ويخرجون من الأجداث سراعاً مستجيبين لنداء الله

تعالى، وعليه فإنّ معنى قوله تعالى: ((وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا))(الزلزلة:٢) أي أخرجت من باطنها الأموات التي دُفنت فيها، هناك كم هائل من الأموات يخرجون دفعة واحدة، قد يبدو غريبًا أن تكون نفخة تميت وأخرى تحيي، ولهذا يقربون ذلك بنفخ الإنسان على النار، فنفخة تشعلها وأخرى تطفئها، وكذلك نفخ الصور مع الفرق الهائل والكبير بين الأمرين.

إطلاق الآية يشمل جميع الموتى من الإنسان والحيوان:

قد يتعجب بعض الناس من قولنا إنّ الأرض مليئة بالموتى إذْ أنّ هناك صحاري كثيرة وبحار، فكيف تكون هذه الصحاري ممتلئة بالموتى؟

تظهر الإجابة على التساؤل الآنف من خلال القصة التالية، استدعي الإمام الهادي ع إلى سر من رأى، وكان الوقت صائفاً، ولما أراد الإمام (ع) أن يخرج أخذ ثياب الشتاء، فضحك الجند الذي رأوا الإمام ع لأنّ الوقت في شدة الصيف، فكيف يأخذ الإمام ع عدة الشتاء؟ وعندما توسط الإمام مع الجند الصحراء هبت ريح باردة ومات كثير من الجند الذين جاءوا مع الإمام ع، وبقي القائد ومجموعة، إذْ أعطاهم الإمام ع بعض الأردية، وقد كان الإمام ع يحدث أنه لا توجد أرض إلاّ وتحتها موتى، فقالوا له حتى الصحاري؟ قال حتى الصحاري.

من خلال القصة الآنفة نتعرف على أنّ الأرض مليئة بالموتى من الإنسان وغيره، وعليه فإنّ قوله تعالى: ((وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا))(الزلزلة:٢) أي حُشر من فيها من الموتى، وأُخرج من في باطنها منهم.

الثاني كنوز الأرض

التفسير الثاني: هو إخراج ما فيها من الكنوز.

الأرض مليئة بالكنوز من الذهب والمجوهرات الأخرى، والله تعالى يُخرج جميع كنوزها من باطنها إلى ظاهرها، وهذا التفسير يرافق التفسير الأول أي يقترن به، فمع إخراج الإنسان من باطن الأرض يُخرج أيضاً ما فيها من الكنوز، ويرى النّاس الذين لديهم مشاكل أنّ أكثر مشاكلهم على المال، أي ترجع إلى المشاكل الاقتصادية لتأثيرها الكبير بين الناس بل بين الأخ وأخيه، كما في الإرث، وبين الشريك وشريكه والأب وأبناءه والزوج وزوجته وهلم جرا، وحينئذ أي إذا رأى الناس هذه الكنوز التي بطل مفعولها، لأنّ عالم الآخرة له أسس وقوانين مغايرة لعالم الدنيا، قال تعالى: { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}(إبراهيم:٤٨)، سيقول كل واحد بينه وبين غيره مشكلة، بهذا قتلت وبه قطعت وسفكت وارتكبت المآثم، وكل إنسان يشير إلى قسم من المال ويقول به اقترفت ما اقترفت.

إذن معنى قوله تعالى: ((وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا))(الزلزلة:٢) يشير إلى أنّ إخراج الأثقال سيقترن مع إخراج الأموات من باطن الأرض ليتذكر الإنسان ما تنازع عليه مع أخيه الإنسان، وما اقترف من آثام في حق أخيه، فيندم على ذلك لما يرى بأم عينه بأنّ تلك المدخرات الكائنة في الأرض بطل مفعولها وتلاشى، لأنّ مفعولها مؤقت بزمن محدود وكان بإمكان الإنسان أن يتجنب التأثير السيئ لبريقها لكنه لضيق أُفق تفكيره وحصره لنفسه بهذه الحياة القصيرة والمدة المحدودة اقترف ما اقترف وارتكب ما ارتكب، وبذلك يصبح معنى قوله تعالى: ((وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا))(الزلزلة:٢) هو أنّ ما في باطن الأرض من المدخرات والثروات يبرز للإنسان مع إخراجه من باطنها ليرى كل إنسان ما اقترفت يداه.

الثالث الطاقة الهائلة في باطن الأرض

التفسير الثالث: لقوله تعالى: ((وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)) (الزلزلة:٢).

في الأرض طاقة هائلة، وفي هذا العصر فإنّ بعض الدول المتقدمة باتت تستفيد من الطاقة الموجودة في باطن الأرض، والتي هي في الطبقات السفلى منها، وهي طاقة هائلة جداً ونيران البراكين الزائدة تخرج من باطن الأرض، ولعل المعنى أنه مع إخراج الإنسان تخرج شدائد مهولة تصحب إخراج الأثقال من المدخرات من الذهب والمجوهرات الأخرى والمعادن الثمينة، وبذلك سيتضح للإنسان ويتجلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية في الكون وهو الطاقة الهائلة التي تخرج من باطن الأرض.

ماذا نستفيد من هذا التفسير الثالث؟

ونستفيد من ذلك شيئًا في غاية الأهمية هو أنّ الإنسان بعد إظهار آية من آيات الله الكبرى، وهي الزلزلة سيكون إلى جنبها بركان هائل يعم الكرة الأرضية مع إخراج الإنسان، وحينئذ سيرى البركان الشامل والهائل الهائج الذي يعم الكرة الأرضية مع الزلزلة، وتشير بعض الروايات إلى هذا المعنى، أي أنه عندما يحين الانتقال إلى عالم الآخرة وتتزلزل الأرض ويكون الإنسان في شدة وعسر، فإنّ من الشدة والعسر الذي يمر بالإنسان وجود نيران ذائبة مشتعلة، وهذا التفسير الثالث ليس في قبال التفسيرين الأوليين بل لعل التفاسير الثلاثة مرادة من الآية الكريمة.

المقصود بالإنسان

قال الله تعالى: ((وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا))(الزلزلة٣ -٤).

لهذه الآية أكثر من تفسير:

الأول الإنسان الكامل

تشير الآية المباركة إلى المرتبة الكاملة التي وصل إليها الإنسان حيث يستطيع أن يتصرف في الكون نتيجة للولاية التكوينية والتي يمنحها الله تعالى لبعض عباده المخلِصين المخلَصين كما كانت تصدر من بعض الأنبياء والرسل والأوصياء ع، وهناك تطبيق على مولانا أمير المؤمنين ع، فقد قال في الآية أنا الإنسان الذي يقول ((مَا لَهَا))، وهذا تفسير للآية بمعنى أنّ الإمام ع هو البالغ إلى الرتبة الكبيرة والمنزلة العظيمة لعبوديته للحق جلا وعلا، وله ولاية تكوينية على الكون.

الثاني الإنسان الغافل

أو أنّ الآية تشير إلى الإنسان الغافل عكس المعنى الأول تماماً، أي أنّ المعنى الأول تشير فيه الآية إلى الإنسان الكامل، أما المعنى الثاني فتشير فيه إلى الإنسان الذي تجرد عن إنسانيته وأصبح كالبهيمة همها علفها وشغلها تقممها، وهذا الإنسان يعيش الغفلة والبعد عن الحق تعالى ولا يتوجه إلى الله ولا يلتفت إلى مصيره إلاّ عندما تحدث الشدة، وبعد فوات الأوان، وهذا القسم من الناس الذين يقضون حياتهم في غفلة، وفي بعد عن الله تعالى ويتوجهون في المراحل الحرجة جداً وبعد فوات الأوان، دون أن ينتفعوا بالتوجه كما كان ذلك لفرعون عندما قال ((آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ))(يونس:٩٠)، لكنه لم يستفد من إيمانه ولم يغنه ذلك من عذاب النار.

لحظات ذهول الإنسان

إذن قوله تعالى: ((وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا)) معناه أنّ ذلك الارتجاج الهائل والاضطراب الكبير الذي يعم الكرة الأرضية يُلفت انتباه الإنسان إلى التفكير الجاد فيقول: لم أصبحت هذه الأرض ترتج بهذا النحو من الارتجاج وتضطرب بهذه الكيفية الهائلة، فـ((مَا لَهَا)) أي ماذا حدث بها؟ لأنه كان يعيش حالة من الاستقرار والسكون والهدوء ويتصور أنّ الدنيا دائمة ولا تتغير عما هي عليه من حال، وعندما تغير حاله وانقلب مآله سأل: ما لها، أي لماذا أصبحت الدنيا بهذه الكيفية؟

إنّ الطغاة الذين يتكبرون على الحق عز وجل، ذلك ديدنهم عندما يفوتهم الأوان يقولون لماذا حدث ذلك؟ ولا يتهيئون مستعدين لعالم الآخرة ولا يلتفتون متوجهين إلى انقلاب الحال بل يظنون أنهم على وتيرة واحدة، ولذلك رأينا الانقلابات التي حدثت على بعض الرؤساء والملوك في حياتنا، وكيف كان الحدث كبيرًا عليهم، لأنهم يعيشون في ملكهم وبين جنودهم، ويظنون أنّ وضعهم سيستمر إلى ما لا نهاية، وكذلك حال الإنسان عندما يحدث التغير الكوني الهائل إذا كان من الغافلين عن الله تعالى، سوف يقدم التساؤل ويقول ما لهذه الأرض تضطرب بهذا النحو من الاضطراب الذي لا نتمكن معه من البقاء فيها، ومن الاستفاد منها؟

إذن السؤال الذي يوجهه الإنسان ولن يستفيد منه شيئًا لأنه كان عليه قبل ذلك التفكير الجاد والتساؤل الهادف الذي يوصله إلى اليقين بزوال هذه الدنيا والانتقال منها إلى الآخرة، وذلك هو المعنى الدقيق لما جاء في الروايات من أنّ ((تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة))، إذْ أنّ من يتفكر يتذكر، ويقف متأملاً مع نفسه ويلتفت إلى أنه قد أخطأ، ويلتفت أيضًا إلى أنه كان ينبغي

عليه أن يغير من مساره وأن يتوجه إلى الله تعالى، فيستفيد من تفكيره، أمّا الطاغي فلم يستفد وعندما يتذكر ((وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ))(ص:٣) أي ولات حين مندم.

وكي تتضح المسألة انظر إلى بعض المرشدين الذين يقدمون نصائح لبعض من هو تحت إدارتهم، ولا يلتزم بقوانين العمل، فيقال له: التفت، بأنّ العمل فيه قانون، رغم وجود درجة من التسامح، يمكن من خلالها أن تمشي لك بعض الأمور، والعاقبة أن يأتي يوم يفصل عن عمله، فيقول: والله ما كنت انتبه، وقد قصرت، ويندم، وتشير الآية إلى هذا المعنى أي أنه حينما تضطرب الأرض وترتج يقدم هؤلاء الناس الذين لم يستفيدوا من تفكيرهم فيقفون مع أنفسهم في حالة من الذهول والتأمل، قائلين ما للأرض غير مستقرة، متناسين أنها خُلقت لهم إلى أجل محدود ليستفيدوا منها في عبوديتهم للحق تعالى، وعندما انتهى ذلك الأمد سوف ينتقلون إلى عالم آخر، إذن هي وسيلة وليست غاية، وعلى المرء أن يلتفت قبل فوات الأوان.

أخبار الأرض

قوله تعالى: ((يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا))، فإنّ الأرض تتحدث بأخبارها، وفي حديث الأرض بأخبارها معانٍ متعددة.

الأول تعبير كنائي

لأنّ الأرض إذا نظر إليها الإنسان بعد التغيرات التي تطرأ عليها سيتذكر ما مر به عليها، وذلك هو معنى حديث الأرض ورواية الأرض لأخبارها، وهو يماثل حديث الأطلال لدى الشعراء حيث إنهم يتغنون بالأطلال لكونها تحدثهم عن الماضي، وهو تارة يحكي ألمًا ومرارة وأخرى يحكي كبرياء وصمود وقوة وعبرة، وثالثة عن حب ووئام بين الناس، وعلى هذا المعنى فإنّ حديث الأرض بأخبارها بمعنى الكناية، قد ورد عن النبي ص أنّ حديث الأرض بأخبارها هو أنّها تتحدث بما قام به الإنسان عليها فتقول فلان فعل عليّ كذا، وفلان قام بالعمل الكذائي، ولدينا شواهد على هذا المعنى، وردت في الأحاديث، فقد ورد أنّ الأرض تشهد على الإنسان، وينبغي للإنسان إذا أراد أن يصلي أن يغير الأماكن بمعنى أن يصلي في أماكن متعددة لأنّ كل قطعة من الأرض ستشهد في يوم القيامة أنّ فلاناً صلى عليها وصلى فيها، وعليه فإنّ معنى قوله تعالى: ((يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)) أي تشهد على الإنسان بما قام فيها من أعمال، وقد استعرضنا أنّ أكثر من شيء يشهد على الإنسان، إذْ أنّ هناك الزمان الذي يشهد عليه، والأرض بالإضافة إلى شهادة الملائكة والجوارح وشهادة الحق تعالى، فهناك أكثر من شاهد، والتفسير النبوي للآية المباركة يشير إلى أحد الشواهد التي يمكن أن نعبر عنها بأنّ الأرض تأخذ صورة من عمل الإنسان، وتحتفظ بها إلى يوم القيامة فتظهر

الصورة ليرى الإنسان ما قام به من أعمال عليها، وذلك معنى قوله تعالى: ((يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)).

الثاني تعبير حقيقي

بمعنى أنّ الله تعالى يعطي الأرض القدرة بأن تتحدث ببعض الناس، وقد يتصور أنّ هذا ليس بصحيح، فإنّ الأرض لا تتحدث، حتى أنّ بعضهم فسّر قوله تعالى: ((وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا))(فصلت:٢١) بتعبير كنائي أيضاً، لكنّ القرآن يردّ ذلك لأن الجلد يتحدث فعلاً، قال تعالى: ((قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ))(فصلت:٢١)، إذن هناك حديث للأرض في طائفة من الروايات وهناك إشارات من القرآن الكريم تبين أنّ الأرض تتحدث وليس كناية وإنما حقيقة، كقوله تعالى: ((وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ))(الإسراء:٤٤)، وكقوله تعالى: ((أنطق كل شيء)) ولا ينبغي أن نتصور أنّ الإنسان لا ينطق إلاّ بلسانه فقط لأنّ اللسان لحم جعل الله تعالى له القدرة على النطق، وهو تعالى بيده القدرة يجعلها كيف شاء، بيده كل شيء، ونتعقل أن تكون الأرض ناطقة بما يكون عليها، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك: ((قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ))(فصلت:٢١)، فكل شيء ينطق بقدرة الحق تعالى، ويمكن أن يكون معنى تحدث أخبارها بنطقها كما ينطق الإنسان بلغة ما ولا نحتاج أن نقول ما قاله بعض المفسرين من أنّ الله تعالى يقلب الأرض إلى حيوان يتحدث، فإنّ الأرض بحد ذاتها تتحدث، وهناك شواهد وردت في الروايات أنّ داوود ع إذا سبّح الله تسبّح الجبال معه، والتسبيح ليس لصدى داوود بل هو نطق لا شكّ فيه، ولعل قوله تعالى: ((يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ))(سبأ:١٠) يراد به ترديد التسبيح.

التسبيح لغة معناه التنزيه، وأنّ الله تعالى ليس بناقص، والتسبيح تبيان للجلال والكبرياء للباري عز وجل، ويمكن أن يكون بالتعبير الكنائي كما أوردنا ولكن حسب ما يظهر من الروايات وآيات القرآن أنه تعبير حقيقي، وأنّ قوله تعالى: ((يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ))(سبأ:١٠)، أنّ الجبال كانت تردد ما يقوله داوود ع: ((سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح))، وقد نطق الجبل بذلك أيضًا، وقد قرأت أنّ لبعض العلماء الأتقياء الزهاد كرامة بتكرار التسبيح معه.

نعم؛ قد يصعب علينا أن نصل إلى هذه المراتب، لكونها تحتاج إلى جهد كبير وإلى تقوى من الله لكنّ الله تعالى يأخذ بيد من أراد، وعلينا أن نتذكر أنّ كل شيء بيده تعالى، وليس ببعيد على الله تعالى أن يجعل الأشياء تردد وتثني عليه تعالى لأنه هو القادر على إنطاق الأشياء، نعم؛ قد نتعجب من ذلك إلاّ أنه لا ينبغي إنكار هذه المظاهر.

حديث الأرض

إذن معنى ((يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)) أنّه بعد الزلزال العظيم والتغير الكوني الهائل تتحدث الأرض بما كان عليها وبما حدث فيها، وقد مرّ علينا تفسيران لحديثها:

الأول: أنّ حديث الأرض يُعرف كما يعرف الدارس الأطلال بما حدث في تلك الديار بمعنى أن يصل الإنسان بعقله، وقد قلنا إنه تعبير كنائي أو أنه تعبير حقيقي بنطق التراب، والقول بما حدث على الأرض من أحداث متعددة من جرائم وخيرات، فيكون معنى حديث الأرض حقيقيًّا وهو المعنى الثاني.

لماذا تحدث الأرض

قال الله تعالى: ((يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ❖ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا))(الزلزلة٤ -٥).

ولعل الأصح لحديث الأرض هو المعنى الثاني لأنّ قوله تعالى: ((بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)) فيه دلالة على ذلك، أما لماذا تحدث الأرض بما جرى عليها وبما وقع فيها مع أنّها ليس من طبيعتها ذلك، بالرغم من أنها تحتفظ بما جرى عليها ولكن الحفظ شيء والحديث عنه شيء آخر، فالحديث عنه كما يظهر هو أمر من الله تعالى، يأمرها بأن تحدث بما جرى عليها وتكون شاهدة صادقة تظهر الواقع كما كان دقة، إذْ أنها تلتقط صور الأشياء وهي أشبه بكاميرا فيديو صوّرت الواقع، وقد يكون حديثها بمعنى إراءة ما التقطته من صور بمعنى أنّ ذرات التراب التي نسير عليها تلتقط ما يجري عليها فتقوله يوم القيامة.

الوحي للأرض

قوله تعالى: ((بأنّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)) أي أنها تحدث بما جرى عليها بسبب وجود أمر إلهي يقول لها حدثي بما كان عليك.

الوحي في اللغة معناه الإعلام بخفاء، ويتضمن معنى السرعة، فإذا أردت أن تعلم أحدًا بخبر عن شيء وجعلت إخبارك يتضمن معنيين الإخبار السريع مع كونه فيه خفاء، بحيث لا يعلم به من جاورك، فإنّ ذلك الإعلام السريع المخفي يسمّى وحيًا، إذن الإخبار على قسمين:

الأول: هو إيصال الخبر إلى الطرف المقابل بنحو بيّن وواضح.

والثاني: هو إيصاله بنحو سريع مع كونه خفيًّا.

والمعنى الثاني يسمّى لغة الشفرة المتفق عليها، ويعبّر عنه بالوحي أيضًا، وهو ما يكون بين الحق تعالى وبين أنبياءه، أما بواسطة الملك أو بواسطة الرؤية

في المنام أو بواسطة أنه يخلق ذلك الكلام في شجرة أو في نار أو في أي مخلوق من المخلوقات، ويتاح للطرف الآخر أن يفهم ذلك، والله تعالى كما يخاطب أنبياءه ويوحي إليهم، كذلك يوحي إلى النحل وإلى الحيوانات أيضًا، وقد يؤلها ما يريده سبحانه منها بشكل سريع وخفي، قال تعالى: ((وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ))(النحل:٦٨) هذا إعلام أي أعلمها وأخبرها بشكل خفي بحيث لا أحد يطلع على هذا الإعلام والإخبار، وقد يعبّر عن ذلك بأنه فطرها على تلك الحال.

إنّ الأرض تحدث أخبارها لأنّ الله تعالى أراد منها أن تكون ناطقة شاهدة لهذا الإخبار عندما تتزلزل الأرض فيراها الإنسان تتحدث عن أعماله كأنها شريط فيديو أو شريط سينمائي، وهذا المظهر من المظاهر التي توجب للإنسان إشكالية كبيرة، وهنا نلاحظ أنّ الإنسان يستحي إذا صدر منه عمل معيب، واطّلع الآخرون عليه، وتحدثوا به أمام مرأى ومسمع من الناس، وكأنّ الإنسان يريد حينئذ من الأرض أن تبتلعه كي لا يطلع الآخرون على ما جرى منه، وهذا أمر واضح، وهكذا الحال بالنسبة للأرض ولكن بنحو أمر وأفضع لأنّه على مرأى الخلائق من الأولين والآخرين، أي أنّ الجميع يطلع على ما صدر من خير ومن سوء حتى كأنه ليس وحده، ولذلك نرى الأنبياء والرسل والصالحين والأوصياء والمخلصين يتألمون مع أنهم لم يصدر منهم إلاّ الخير وما يرضي الله تعالى ولكنهم لعرفانهم الحقيقي وشدة هول المطلع والوقوف بين يدي الله تعالى، وتكرار ذلك الشريط الذي قلنا إنهم يقفون حيارى ويتألمون لخوفهم من الله سبحانه.

تفرق الناس في المحشر

قوله تعالى: ((يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ))(الزلزلة:٦).

يترتب على إظهار الأرض ما فيها وحديثها بما صدر عليها وما كان فيها من لدن الإنسان أمور:

الأول صدور الناس بحسب أعمالهم

إذْ يتفرق كل فريق من الناس على ضوء ما صدر منه، وكل واحد يأخذ جزاءه لأنّ الجزاء هو نفس العمل ((إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ))(الطور:١٦)، وكي تتضح المسألة فإنّ الناس في الحياة الدنيا كالتلاميذ الذين درسوا في جامعة أو في معهد علمي سيتخرجون على شكل فئات وأصناف، بعضهم من المقبولين، وبعضهم الآخر من الذين يحملون درجة امتياز، وقسم من المتوسطين، وكل فئة منهم على حدة وتكريمهم سيختلف فهم أشتات يتفرقون بحسب ما كان لهم من جهد بذلوه في الفكر والتحصيل الدراسي، والناس أيضًا سوف يتفرقون بسبب ما صدر منهم من أعمال في يوم القيامة فيصيرون أشتاتًا متفرقين لأنّ كل إنسان سيكون مع الفئة التي تتناسب مع أعماله فيصبح وإياها، وقد يكون بعض الناس يعيش زمانًا ولكنه يُحْشر مع قوم آخرين عملوا نفس الأعمال من أهل زمانٍ آخر.

الثاني صدور الناس بحسب معتقداتهم

وقيل إنّ: ((يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا)) أي متفرقين بسبب عقائدهم، وليس بسبب أعمالهم فحسب، بل بسبب المعتقدات لتأثير الجانب العقدي في شخصية الإنسان.

الثالث صدور الناس بحسب أعمالهم

قوله تعالى: ((لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ❖ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ))(الزلزلة:٦- ٧).

بعد أن تستعرض السورة المباركة المشاهد المتعددة والكثيرة للتغير الهائل والكبير في مظاهر الكون ترتب على ذلك أنّ الناس يصدرون أشتاتاً، (أشتاتا) جمع شت وهو الشيء المتفرق المتبعثر، فيصدر الناس متفرقين ومتبعثرين، وتفرق الناس إما أن يكون على أساس ما صدر منهم من أعمال فكل إنسان يصدر مع من يشاكله ويشابهه في الأعمال، فالسيئون مع السيئين والمتقون مع المتقين، وهكذا، حال كل فئة من الناس، وكل صنف منهم يصدر مع ذلك الصنف الذي ينتمي إليه، فيكون معنى قوله تعالى: ((يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا)) يشير إلى أنّ كل فئة من الناس تجتمع من تنتمي إليها على أساس الأعمال أو المعتقد، ولذلك يقال إنّ أهل كل أمة تأتي مع من تنتمي إليها، ويشهد بهذا التفسير الثاني، قوله تعالى: ((يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ))(الإسراء:٧١)، فيكون المعنى الأوضح لقوله تعالى: ((يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا)) أي متفرقين على أساس عقيدتهم.

تفسير رؤية الناس أعمالهم

أما قوله تعالى: ((لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)) فهو بيان للنتيجة وأنّ الذين يصدرون متفرقين ومشتتين، كل فئة منهم بل كل فرد من أولئك الأفراد سيرى عمله، وقد فسّر رؤية الإنسان لعمله بتفسيرات عدة:

الأول رؤية صحيفة الأعمال

يرى الإنسان صحيفة عمله، ولا يرى العمل ذاته وإنما يرى السجل المدون عليه والذي كُتب فيه جميع أعماله منذ بدء قلم التكليف في اليوم الأول إلى

آخر يومٍ من حياته، إذن قوله تعالى: ((لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)) أي يرون الصحف التي دُونت فيها الأعمال ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ((وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ... الخ))(الإسراء:١٣)، وكذلك قوله تعالى: ((مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا))(الكهف:٤٩)، والمعنى أنهم يرون الكتب المدونة فيها الأعمال.

الثاني رؤية نتائج الأعمال

قوله تعالى: ((لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)): أي يروا النتائج المترتبة على أعمالهم، فكل عمل له نتيجة، وهناك طائفة من الروايات تشهد بذلك، فالذي يعمل العمل الطيب والحسن، فإنّ لعمله الطيب الحسن صورة في عالم المجردات، أي أنّ لعالمنا المادي صورة في ذلك العالم، والإنسان بعد أن يحاسب ويصدر يرى نتيجة عمله، وهناك أيضًا طائفة من الروايات تشهد بالتفسير الثاني أي أنّ نتائج الأعمال تتحدث مع الإنسان ويخاطبها فيرى بعض الصور الحسنة والجميلة ذات الروائح الطيبة فيوجه سؤالاً إلى تلك الوجودات، من أنت؟ لم أرَ أحسن منك صورة وأطيب منك رائحة؟ وألطف منك معاشرة؟ أي أنه وجود طيب، جاء لمؤانسته، فيأتي النداء أنا عملك الصالح الذي قمت به في يوم كذا، في زمان كذا، إذن معنى ((لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)) أي يروا النتائج لأعمالهم، وقد شهدت الروايات بهذا المعنى.

الثالث أن الجزاء نفس العمل لكن بما يتناسب مع العمل المجسد

قوله تعالى: ((لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)) أي أنهم يرون نفس العمل، والعمل ذاته، ولهذا التفسير شواهد من آي القرآن الكريم، فقد تحدثت بعض آياته عن أنّ الجزاء هو نفس العمل الصادر من الإنسان، وليس هناك شيء يختلف، بل نفس

العمل لكنّ وجود العمل يتناسب مع ذلك العالم، فوجودنا في الحياة يتناسب مع وجودنا المادي الذي نعيشه أي يحيط بنا الزمان والمكان ونتقيد بقيودهما، أما في عالم الآخرة عندما يتجرد الإنسان عن الزمان والمكان وينتقل إلى عالم الآخرة فإنّ عمله يتناسب مع ذلك العالم المجرد كما أنّ وجوده في الحياة الدنيا يتناسب مع الوجود المادي الكثيف، وأعماله التي هي جزاءه تتناسب مع العالم المجرد اللطيف،

وقد وردت عدة من آيات القرآن تفصح عن هذا المعنى كقوله تعالى: ((إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ))(الطور:١٦)، أي أنّ الجزاء هو نفس العمل، وأيضاً هناك طائفة من الروايات أشارت إلى هذا المعنى أي أنّ الإنسان في عالم الآخرة تتجسد له أعماله، وتجسد الأعمال هو تعبير كنائي لأننا لا نفهم الآن الأشياء إلاّ إذا كان لها وجود مادّي، أمّا في عالم المجردات فليس هناك شيء نجس، ولذا يشار إلى النجس بوجود آخر مجرد يتناسب مع ذلك العالم اللطيف، والتعبيرات الروائية تخاطب الإنسان وتقرب المعاني له حسب ما يدركه الإنسان مع الوجودات المجسدة في العالم المادي، فتقول له: إنّ أعمالك التي صدرت منك وانبثقت عن وجودك تتجسد لك، وتجسدات الأعمال لها حقائق، حتى أنّ نفس الإنسان تصبغ بها أي يكون لكل وجود صورة، لأنّ الإنسان له صورة وسيرة، وسيرته قد تختلف عن صورته، فقد تكون الصورة صورة إنسان لكنّ السيرة قد تكون سيرة حيوان تجسده الأعمال التي تصدر منه، وتؤثر على وجوده المادي، بمعنى أنك قد ترى إنسانًا لكن عندما يكشف لك عن واقعه تراه كلبًا، أو حمارًا أو جرذًا أو نملةً على حسب الواقع والسيرة التي يكونُ عليها، فمن يتكبر يحشر في القيامة على صورة نملة بحيث يطأه الخلائق، ومن يجمع المال ولا ينفقه في سبيل الله تعالى يحشر على صورة جرذ، لكون الجرذ يقوم بجمع الطعام

ويحفر له حفيرة ليضمه فيها، بحيث ينساه فيخرب، ويتلف، وقسم من الناس شغله جمع المال من دون أن يستفيد منه، فيُحشر على صورة جرذ.

ومن عنده علم، ولم يستفد منه أو يستخدمه في غير طاعة الله يُحشر على صورة كلب أو حمار، قال تعالى: ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))(الجمعة:٥)، وقال تعالى: ((وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث))(الإعراف:١٧٦)، إنّ بلعم بن باعورة عنده علم، وفي الروايات أنه وصل إلى رتبة إذا دعا الله تعالى استجاب دعاءه لأنه عرف الاسم الأعظم لكنه أراد أن يستخدم علمه في حربه لله ولرسوله موسى ع، أي أراد الدنيا من علمه، وما أراد الآخرة، قال تعالى: ((فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث))(الإعراف:١٧٦)، فهو لم يحارب الله فقط، بل لم يستفد من علمه، فأصبح كالحمار، وإذا حارب بعمله أصبح كالكلب، إذن هنا تجسد للعمل، وتجسده يصبغ وجود الإنسان أي يجعل الإنسان في وجوده صورته نفس عمله، وعليه فإنّ لقوله تعالى: ((لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)) ثلاث تفسيرات:

فإمّا أن يراد به نتيجة العمل، أو الصحيفة المكتوب فيها العمل، أو نفس العمل بما يتناسب مع ذلك العالم اللطيف المجرد.

المحاسبة على الأعمال

قال الله تعالى: ((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❖ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة:٧ -٨).

هذه الآية من الآيات العظيمة التي تبين أنّ الإنسان سيلقى جزاء عمله مهما كان حجم ذلك العمل في الضآلة والصغر.

أصغر ما في الوجود

الذرة هي الهباء أي الغبار الصغير جداً والذي يُرى من الكُوّة في النافذة إذا كان هناك أشعة للشمس فيرى جزءً من الغبار البسيط الضئيل، ويطلق عليه في اللغة ذرة، وتطلق الذرة أيضًا في اللغة على كل شيء صغير، فالذرة تعبير لغوي يطلق على الأشياء الصغيرة في حجمها الضئيلة في صغرها، ومن هنا تطلق أيضًا على النملة، وقد ورد في الرواية أنّ المتكبر يكون كالذرة يطأه الخلائق أي كالنملة، وفي العصر الحديث تطلق الذرة على وجود صغير استطاع الإنسان أن يفجره ليحدث به طاقة هائلة يستفيد منها في المجالات المتعددة، وعلم الذرة أصبح وسيلة تخدم الإنسان في مجالات كثيرة، إذْ قد تصل العلوم المرتبطة بالذرة إلى أكثر من خمسمائة علم تستفيد منها الإنسانية في مجالات متعددة من أهمها الطب.

تأثير الأمور الصغيرة في حياة الإنسان

يبين لنا التعبير القرآني مسألة غاية في الأهمية، هي أنّ الإنسان قد يحقر الأعمال الصغيرة ولا يلتفت إلى أهميتها ويرى أنّ الأعمال الكبيرة هي التي لها أهمية ناسيًا أنّ النتائج للوصول إلى الأعمال الكبيرة تترتب على الأعمال

الصغيرة، وأنّ الذي يريد أن يرتقي في أي مجال من المجالات يبدأ من الأشياء الصغيرة ومن ثمّ يتوصل من خلالها إلى الأشياء الكبيرة.

إنّ بعض الناس قد يتصور أنّ صغائر الذنوب لا تؤثر، من هنا يلفت القرآن الكريم انتباه هؤلاء إلى أنّ الذنوب الصغيرة تؤثر تأثيرًا بالغًا ويرى الإنسان أثرها، وكي تتضح هذه الحقيقة، لاحظوا؛ بعض الأعمال الصغيرة التي يرتبها الإنسان ويتوصل بها إلى عمل كبير، كأعمال الخير فإنها كذلك أيضًا، إذْ يبدأ الإنسان بعمل صغير ويجره إلى عمل صغير أكبر من الأول، وهكذا إلى عمل آخر أكبر منهما، إلى أن يسيطر عليه الحق في كل جوانب حياته، وأعمال السوء والشر للذين يقترفون الإثم والذنوب تبدأ بالعمل الصغير كالنظر إلى المرأة المحرّم عليه النظر إليها، فالنظر ليس من كبائر الذنوب، وقد يتحدث شخص معها بالهاتف بنحو فيه ريب، وذلك ذنب صغير، ثم يرتقي الحديث شيئًا فشيئًا، من صغير إلى صغير آخر حتّى يجره ذلك إلى عمل كبير كالزنا، أي أنّ العمل الصغير جرّه إلى كبير.

وعليه فإنّ القرآن الكريم يلفت انتباه الإنسان إلى أهمية العمل الصغير الضئيل في تأثيره العظيم والكبير في ناحيتي الخير والشر، ولذلك عندما جاء جد الفرزدق إلى النبي ص فقال يا رسول الله ص إنّا لنرى أعمالنا صغاراً صغاراً. قال ص: بلى، كباراً كباراً. قال بلى، ثم تلا عليه الآية: ((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❖ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة:٧- ٨) فقال الرجل حسبي، هذا يكفيني، إذن الجائي إلى النبي ص سواءً كان هو جد الفرزدق أو غيره عندما تُليت الآية عليه قال حسبي، وقال النبي ص دعوه فقد فقه الرجل أي وصل إلى الفقه، وهو الفهم، ومن وصل إلى مرحلة الفهم والتأثير الكبير في وجوده المعنوي، فقد فقه بالفقاهة والفهم، واستطاع أن يخطو خطوات في السير إلى الهدف

والغاية التي يريد أن يصل إليها، ولهذا فإنّ الآية هي أحكم آية، وسماها النبي ص الجامعة لأنها تجمع كل شيء يمكن أن يصل إليه الفكر في قوله تعالى: ((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❖ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة:٧ -٨)، ولعل وضعها لافتة يحدد للمؤمن بوصلة تريه الاتجاه الصحيح، وعليه فإنّ الآية من الأهمية بمكان، وقد استفدنا منها أمورًا:

أولا: التعرف على معنى الذرة وهو الشيء الصغير.

ثانيا: تأثير الصغير من الأشياء في الوصول إلى النتائج الكبيرة إنْ خيراً أو شراً، وأنّ الإنسان يبدأ خطواته في الطريق إلى الخير بالأعمال الصغيرة، وكذلك في الطريق إلى الشر بالأعمال الصغيرة أيضًا، وفي الطريق إلى العلم، والطريق إلى الرقي الاقتصادي، فإنّ النّاس يبدؤون أشياء بسيطة جدًّا فيرتقون بها شيئًا فشيئًا، ولهذا قيل: إنّ طريق الألف ميل في الخطوات الأولى من الميل الواحد، وقوله تعالى: ((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❖ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة:٧ -٨)، يعطينا هذه النتائج في حياتنا في اتجاهي الخير والسوء.

أعمال الإنسان في القيامة

ولعله لذلك عبّر النبي ص بأنها الآية الجامعة، وعبّر عنها ابن مسعود أنها أحكم آية، ابن مسعود من الصحابة ومن قراء القرآن أي أنه أحد العلماء وقوله بأنّ الآية هي الأحكم يشير إلى فهم عميق لدلالة الآية المباركة.

أولا أعمال لن يراها

نريد أن نتعرف على كيفية رؤية الإنسان لأعماله في القيامة، والحال أنّ قسماً منها لن يراه لكونه سيوضع في ميزان غيره، بل أنّ من يغتاب الآخرين إذا لم تكن لديه حسنات توضع في ميزان الآخرين، فقد توضع سيئاتهم في ميزانه،

ومعنى ذلك أنّ جزءً من حسناته لن يره، وكذلك لن يرَ العمل الذي يأتي به رياء، فكيف عبّرت الآية بأنّ ((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ❖وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة:٧ -٨)؟

إنّ الآية تعطينا النتيجة وهي كمن يسأل شخصًا كم تملك من المال؟ فيجيب أملك مئة ألف ريال، فيقول: فقط هذا! لعلك تملك أكثر من مئة ألف، بل لعلك تملك مليون ريال، وبالفعل هو لديه حسب المعطيات مليون ريال إلاّ أنّ بعضه كمبيالة للبنك، وجزء آخر لدين مطالب به، والجزء الثالث هو مهر لولده، أي أنّ المال الأساسي هو فقط مئة ألف، أمّا الباقي فهو من الكمبيالة والقرض أو الجزء الذي سيذهب في عرس ولده، وذلك يشبه الأعمال التي يأتي بها الإنسان ثم تحبط، فتزول من ميزانه أو أنّها أعمال لا قيمة لها، وقد استعرض القرآن الكريم كل أنماط الأعمال بقوله تعالى: ((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ❖وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة:٧ -٨)، والنتيجة أنّ كل أعمال الإنسان لا يتمكن أن يراها، لأنه لن يبقى إلاّ الزّبدة من أعماله وهي التي يراها.

ثانيا أعمال سيراها

وهناك تفسير آخر هو أنّ الإنسان يرى كل شيء وحتّى ما ذهب عن ميزانه إلى غيره، بما أنه صدر عنه وانبثق منه سوف يراه لكنّه لن تترتب عليه نتيجة، بل سيتألم نادماً لأنّ ذلك العمل في ميزان غيره، وقد خرج من ميزانه، وهو كمن يبيع شيئًا في الحياة الدنيا ويشتري به شيئًا آخر لا فائدة منه ثم يقول: ليتني لم أبع، ولم اشتري، لكونه لم يستفد شيئًا، والمال الذي يملكه الإنسان قد يتضاعف عشرات المرات، وقد يبقى في شيء لا قيمة له، والمهم هو أنّ الإنسان في التفسير الثاني لا يقتصر نظره على المحصلّة بل يرى جميع ما صدر منه سواءً

كان لصالحه أو أصبح لصالح غيره، عليه فإنّ الإنسان لكونه يفتقد بعض أعماله لكنه سيراه وسيرى جميع ما قام به لكنه لن يستفيد إلاّ من بعضه، صحّ إطلاق : ((فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره)).

يختلف التفسير الثاني عن الأول، لكون الأول يرى الإنسان بناءً عليه النتائج المحصلة فقط، أمّا الثاني فإنه يرى الجميع لكنّه يندم ويتألم لأنه لم يستفد منه بل خسر بعض ما كان قد ربحه لكنه يراه.

تبديل السيئات بالحسنات

المسألة الأخرى في قوله تعالى: ((وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة: ٨) ترتبط بما أوردناه فيما تقدم وهو أنّ هناك آية تقول: ((إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ))(هود:١١٤)، أي أنّ بعض الحسنات التي يأتي بها الإنسان تزيل بشكل كلي السيئات بل قد تبدّل السيئات إلى حسنات، قال تعالى: ((أُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا))(الفرقان:٧٠)، وهذا رحمة من الله تعالى، وللآية معانٍ متعددة:

معنى تبدل السيئات

الأول: إننا نريد هنا أن نبين أنّ الآية لها تخصيصات أي أنّ الله تعالى من لطفه ورحمته أنه يجعل بعض السيئات التي تصدر من الإنسان لا يراها، بل يسترها عليه، ولا يفضحه بين الأشهاد بإظهار سيئات أعماله في المحشر للعباد، بل يبدلها بالحسنات ليرى الناس حسناته.

الثاني: قال بعض المفسرين أنّ معنى قوله تعالى: ((وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة: ٨) ليس أنّ الإنسان لا يطلع عليها كما أوردنا ذلك آنفًا، بل

يطلعه عليها ويجعله ينظرها ويتعرف عليها لكنه تعالى يقول له: انظر إلى فضلنا عليك، وإحساننا الذي أسبغناه لك، فقد أبدلنا تلك السيئات إلى حسنات، إذن معنى ذلك أنّ الفضل الإلهي والجود الربوبي لا يتنافى مع قوله تعالى: ((وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ))(الزلزلة: ٨)، لأنه يرى فعلاً لكنّ الآخرون لا يرون سيئاته لكونها سُترت بل أُظهر للآخرين بواقع ثانٍ، وكي تتضح المسألة فإنّ بعض الناس يخسر أموالًا كثيرة بل قد يخسر كل شيء لكنه يحصل له ما يعوض به ما خسره، لإسعافه من كريم يسبغ عليه من كرمه، حتّى كأنه لم يخسر شيئًا، ويراه النّاس على حاله مع أنّه تعرّض لأزمات لكنّه أُخرج منها ببركات من ذلك الكريم.

إذن قوله تعالى: ((أُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا))(الفرقان:٧٠) ليس بمعنى أنّ الإنسان لا يرى السيئات ولكنّها لا تظهر للآخرين فضلًا وكرمًا من الباري تعالى، بل تظهر كحسنات، كما هو ملاحظ في بعض الأحايين في الحياة الدنيا.

أثر الآية في رقي الإنسان

هذه الآية تمثل الأنموذج الأكبر والدرس العملي الدائم للإنسان الذي يريد أن يرتقي شيئاً فشيئاً، وكي نوضح المسألة نأتي بمثال عملي طبقه النبي ص لبعض الصحابة في مفازة، فقد أمرهم ص أن يجمعوا حطبًا، فقالوا ليس في هذا المكان حطب، فقال لهم: كل واحد يأتي ولو بشيء بسيط، فقام الجميع وأتى كل واحد بعود، فأصبح ما جمعوه كومة من الحطب يستطيعون أن يطبخوا به رغم أنهم قالوا بادئ ذي بدء أنه لا حطب، لكنّهم استطاعوا جمع

الكثير من خلال القليل، فالتفت إليهم النّبي وقال ص: هكذا تجتمع الذنوب[1] أي أنّ الإنسان لا يراها أو يراها بسيطة غير أنّ المحصلة النهائية اجتماع ذنوب كثيرة، تجعل مصيره أسودًا.

تأملات

من هنا لابد أن نلتفت إلى شيئين هامين:

الأول: هو أنّ الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بواحدة، فمن يعمل حسنة يضاعفها الله عشر مرات، بل قد تكون أكثر من سبعمائة ضعف، من هنا على العاقل أن لا ييأس أو يقنط من رحمة الله تعالى، لأنّ الحسنات التي يأتي بها تأثيرها أعظم وأكبر، وقد أشارت بعض الروايات إلى ذلك، قال الإمام زين العابدين عليه السلام: (يا سوأتاه لمن غلبت إحداته عشراته) (ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ - ص ٩٨٨)، أي كيف تغلب الآحاد العشرات.

إنّ الحصيف لا يجعل الأشياء القليلة تغلب الشيء الكبير.

الثاني: أنّ الكرم والرحمة من الحق للخلق لا حدّ لهما ولا حصر، قال تعالى: ((يَرْزُقُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْقَوِيُّ العَزِيزُ))(الشورى:١٩)، أي أنّه يعطي العبد ويدخر له أفضل مما يتوق العبد إليه، لكنّ الروايات ذكّرت الإنسان بأمر جد هام، وهو أنّ عليه أن لا يقنط من رحمة الله مهما صدر منه من الذنوب، بل يبقى مؤمنًا برحمته، ومن كان كذلك فإنّ النجاة ستكتب له لأنها مكتوبة لكل من أمل رحمة الله تعالى.

---

[1] - قال أبو عبد الله (عليه السلام) : إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه : ائتوا بحطب ، فقالوا : يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب قال : فليأت كل إنسان بما قدر عليه ، فجاؤوا به حتى رموا بين يديه ، بعضه على بعض ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : هكذا تجتمع الذنوب ، ثم قال : إياكم والمحقرات من الذنوب ، فإن لكل شئ طالبا ، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه في إمام مبين)(الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - ص ٢٨٨).